خطبة صلاة الجمعة 17/2/2023 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(من آيات الله في الزلزال)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 51-53].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: 25-26].

عنوان خطبة اليوم: **من آيات الله في الزلزال**

الآيَةُ لغة هي العلامة، وسميت آية القرآن آية لأنها علامة منصوبة على طريق الهداية تدل عليه، والآية أيضاً هي الأمر العجيب، وآيات الله عجائبه، والآية هي العبرة قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: 7] أي عِبَرٌ مُخْتَلِفَةٌ، والمراد بآيات الله في الزلزال عبره وعجائبه.

أيها الإخوة:

تساوى الناس في هذه الزلزلة التي ضربت الأرض بفقرهم وخوفهم وحاجتهم لرب العالمين، فخلال ثوان معدودات بدلت الأرض غير الأرض، تهدم البناء واختفى الضياء وصار الناس بين شهيد وفقيد وشريد في العراء.

البيوت الفارهة صارت خرابا، والمراكب الفخمة صارت يبابا، والمزارع الممتدة صارت سرابا، والناس بين مرعوب وباكي، وصارخٍ وشاكي. وكلهم ضارع إلى الله.

إنها آية من آيات الله في الزلزال ترينا شيئاً من قوة الله وعظمته وكثيراً من فقرنا وفاقتنا ﴿وَمَا بِكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: 53].

والمتوقع من العبد أن يبقى على باب ربه ملتزماً أمره منتهياً عن نهيه وليحذر أن يصيبه قول الله: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 54].

رأينا في هذه الزلزلة تكاتف أبناء هذا البلد واجتماعَهم على معونة بعضهم ومواساة بعضهم على ما هم فيه جميعاً من اللأواء والضراء، فقوافل الخير تنطلق إلى المتضررين وفيها أنفس ما يملكه أولئك الرجال والنساء، ويقولون إنها ليست مساعدة ولكنها فزعة الأخ لأخيه، وأطفالٌ يُخرجون النقود من حصالاتهم ونساءٌ يبذلن من حليهن وبنات جمعن قطعاً نفيسة من ثيابهن وشباب يتراكضون للسفر لمعونة أهلهم المتضررين، إن هذا التعاون والتكاتف لمما يرضي ربنا ويَسرُّ قلب نبينا صلى الله عليه وسلم، ويلملم جراحنا ويخفف وطأة الرجفة على إخواننا، إنها آية من آيات ربنا أن يبلو بعضنا ببعض.

لولا التَّعاونُ بين النَّاسِ ما شَرفتْ نفسٌ ولا ازدهرتْ أرضٌ بعمران

أخرج البخاري ومسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**».

في الأخبار المتعاقبة للزلزال سمعنا ورأينا شيئاً من آيات الله العجيبة، فهذه طفلة تنجو من تحت الأنقاض بعد خمسة أيام ولا طعامَ ولا شراب، وذلك شيخ بعد عشرة، وتلك مسنة بعد أحد عشر يوماً، وتلك حامل تلد منفردة فينجو وليدها وتُسْلِم روحَها لباريها، ولو سألت أطباء الدنيا عنّ المسألة وإمكانها لحاروا جميعاً ولكن الله على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: 62-63].

نقلت وسائل التواصل ومحطات الأخبار لقاء طفلة بإحدى المشافي سقط سقف منزلهم عليهم فمات الأب والأخ مباشرة وبقيت البنت الصغيرة تحت الركام يومين تقول إنه جاء من يسقيها لبناً وماء بارداً خلال هذين اليومين إلى أن أخرجت إلى المشفى.

ومثلها شاب سأل ربه بعد مرور أربعة أيام تحت الأنقاض وبعد أن نفدت طاقته لشدة عطشه أن يقبضه إليه كي لا يتألم أكثر، فأدخله الله في غفوة – كما يقول – صحا بعدها وكأنه قد شرب وارتوى وبقي على حالته من الارتواء والطمأنينة يومين آخرين بعدها فوصل مجموع ما قضاه تحت الأنقاض مائة وخمسين ساعة، وتوثيق هذه القصص موجود على الشابكة.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه في قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه حديثاً طويلاً فيه: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: السلام عليك يا رسول الله فقال: «**وعليك ورحمة الله**» ثم قال «**من أنت؟**» قال قلت: من غفار، ... قال: «**متى كنت هاهنا؟**» قال قلت: قد كنت هاهنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم، قال: «**فمن كان يطعمك؟**» قال قلت: ما كان لي طعام إلا ماءُ زمزم فسمنت حتى تكسرت عُكَن بطني، وما أجد على كبدي سُخْفَة جوع، قال: «**إنها مباركة، إنها طعام طعم**».

إن الذي يرويك بالماء ويغذيك بالطعام ويغنيك بالمال قادر على أن يرويك ويغذيك ويغنيك من دونها، فما عليك إلا أن تثق به وتلتزم أمره ونهيه.

في قصص الزلزال طفل بالمشفى يكاد يكون بغيبوبة يذكر الله ويوصي بكثرة الصلاة على رسول الله. وامرأة من تحت الأنقاض تطلب من المنقذين أن يأتوها بغطاء لتستر شعرها قبل أن تخرج، وفتاة تبكي لأنها فاتتها الصلوات أياماً وهي تحت الأنقاض، ومسن يطلب من المنقذ قليلاً من الماء ليتوضأ ويؤدي الصلاة بينما يصار إلى إخراجه.

ويتحدث أحد الرجال وقد أُصيب بفقد زوجته وجميع أولاده تحت أنقاض بيته، وعايَشَ اللحظاتِ الأخيرة لزوجته وهي الحافظة المجازة والداعية المربية، قال: كانت على مقربة مني تحت الركام، والظلام يلفنا، وكانت آخر كلماتها: إن كنتُ أرغبُ بالحياة فلأني لم أكمل رسالتي بعد في بناء الجيل ونهضة الأمة، ثم قالت لي: سامحني وارض عني، ضاق نَفَسي.

ثم غاب كلامها وانقطعت أنفاسها.

وتم إنقاذي بعد ساعات من دون أن ينجو أحد من عائلتي، وأنا راضٍ عن قضاء الله وقدره، مفوضٌ أمري له.

إن هؤلاء من القوم الذي يشرون مرضاة الله بأرواحهم وأنفسهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207].

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 156-157].

وفي القصص الغريبة والتي هي آية من آيات الله في حفظ العباد ونجاتهم من المهالك قصة ذلك الشخص الذي خرج من تحت الأنقاض هو وزوجته وأطفاله الخمسة من دون أن يمسهم ضرر!

كان بيتهم في الطابق الثامن، وعندما حدثت الهزة اختبأ هو وعائلته في إحدى زوايا المطبخ، ثم انهار المبنى، ووقع السقف فوقهم بشكل مائل وقدر الله وجود فتحة صغيرة ليتنفسوا منها، وكانت الثلاجة تحتوي بعض الطعام وبعد أربعة أيام على هذه الحال تم إنقاذهم وإخراجهم جميعاً بدون أي ضرر وهم بصحة جيدة.

وأعجب من ذلك قصة المرأة التي طلبت في اليوم الخامس بعد الزلزلة إنقاذ ولديها من خلف الجدار ولم يكن هناك ما يدل على وجود أحد في المكان الذي أشارت إليه ولكن عندما تركز البحث وتم إخراج الطفلين قاموا بالبحث عن المرأة التي وجهتهم لمكانهما فاستغرب أحد الطفلين وعمره ثلاثة عشر عاماً وقال أمي متوفاة منذ أربع سنين!

فبرأيكم من كان ذلك الطيف!

عندما يريد الله نجاتَك فسيخرجكِ من بطن الحوت، وعندما يريد سلامتك فسيصرف عنك السوء بخيط العنكبوت ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 17-18].

أيها الإخوة:

لا يزال المؤمن يزداد إيماناً في سرائه وضرائه، وفي عسره ويسره، ولعله يُقَصِّر مع ربه حيناً فتأتي هذه الرسائل من الله تعالى لتنقيه من الذنوب ولتذكره بالعودة إلى الله تعالى فيتوبَ ويؤوب، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين.

ثم إن المؤمن لا يزال يعين إخوانه الذين نزل بهم البلاء، ومثل المؤمنين في توادهم وترحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

قال صلى الله عليه وسلم: «**من نفَّس عن مُؤمن كُرْبة من كُرَبِ الدنيا نفَّس اللهُ عنه كُرْبة مِنْ كُرَب يوم القيامة، والله في عوْن العبد ما دام العبد في عوْن أخيه**» رواه البخاري ومسلم.

روى مسلم في صحيحه أن جماعة من مُضَر وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم فتغيَّر وجهه لما رأي بهم من الفَاقة، فخطب في الناس وحثَّهم على معونتهم، فجمعوا شيئًا كثيرًا سُرَّ به النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى من مسارعتهم إلى الخير، وقال: «**من سنَّ في الإسلام سُنَّة حَسَنة فَلَه أجْرُهَا وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**».

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا، اللهم تول إخواننا المصابين واجبر قلبهم وكسرهم.

والحمد لله رب العالمين